كما نكون يكون عالمنا

للفيلسوف برتراند رسل

ان العالم اليوم حافلٌ بالآلام . وما عقدهُ البشر من أمل على المستقبل قد خاب . وبدلاً من ان يمضوا في طريق الارتقاء ارتدُّوا القهقرى الى الهمجية القديمة . فكيف نستطيع ان نجتنب الشعور بخيبة الأمل وانقطاع الرجاء وثبط الهمة ؟ ما فائدة تربية الأولاد اذا كان العالم دارة لايطاق العيش فيها ؟ وهل كل أمل ورجاء في سعادة الناس وتقدمهم ضرب من الوهم والخداع؟

إني لواثق بأن الرد الصحيح على هذه الاسئلة ليس في الاستسلام للقنوط

قد يبدو لك من الغرور ان تظن ان في وسعك اسداء يد عظيمة لتحسين أحوال الناس . ولكن هذا الظن وهمٌ . فعليك ان تؤمن بأنك قادر على تحسين العالم . ان الاجتماع الخيِّر قوامه افراد اخيار ، كالكثرة التي تنتخب الرئيس قوامها اصوات الافراد من الناخبين . وفي وسع كل امرىء ان يسدي صنيعاً يبثُّ شعور اللطف والرضا في بيئته بدلاً من تحريك روح السخط والغضب ، وبتعزيز الميل الى التعقل دون الميل الى الهستريا ، وبنشر السعادة والرخاء بدلاً من البؤس والشقاء . ومجموع هذه الأعمال هو الفارق بين الخير والشر في العالم . فاذا كنت قطباً سياسيًّا كانت بيئتك كبيرة . واذا كنت أحد الناس ، كانت بيئتك محدودة . ففي الحال الأولى تستطيع كثيراً ، وفي الثانية تستطيع قليلاً ، ولكنك على كلِّ حال تستطيع ويجب ان تصنع شيئاً ما . فكل والد أو والدة ، ينشىء ولدهُ بحيث يكون أميلَ الى التعقل والدماثة ، انما يعمل ما يجب أن يعمل لاصلاح العالم وإقامة أركان السعادة فيه . وكلُّ من يقاوم النزوع الى التعصب ، وهو نزوع يُحيق بنا جميعاً ، يضع لبنةً في بناء مجتمع تستطيع الجماعات المختلفة فيه أن تعيش في مودة متبادلة . قد تقول : ما أقلَّ ما يستطيعهُ امرؤٌ واحد ضدَّ شرٍّ كبير ! ولكن الشرور الكبيرة ، مردُّها الى اجتماع شرور صغيرة . والخير العظيم ينشأ على المنوال نفسه

وقد تقول : مايستطيعهُ امرؤٌ فردٌ ضدَّ العالم . ولكنك لو كنت شريراً لكان نصيبك من الشر الاكبر يسيراً كذلك . فالخير والشرُّ على السواء ينبعان من أعمال الأفراد ، ولا ينحصر ذلك على الأفراد المميزين بل يشمل جميع الرجال والنساء الذين تتقوَّم الجماعات بهم

ليس في تاريخ العالم فترة سابقة ، كان فيها فكرُ كلِّ فردٍ وضميرهُ ، أعلى منزلة وأعظم أثراً منهما الآن . فكلٌّ منا في حاجة الى ان يبذل سعياً صادقاً لإنشاء حالةٍ أصلح قليلاً من حالتنا القائمة . ويجب ان يحدونا رجاء في عالم أقلَّ قسوةً وألماً من عالمنا الحاضر ، ويجب ان يحركنا عزمٌ صلبٌ على بذل غاية ما في الوسع لتحقيقه . ان مكافحة القوى المدفعة العظيمة المنبثقة من روح التعصب مستحيلة ، بغير ان تحركنا قوة اخرى تعدلها عزماً واندفاعاً

ان في قدرتنا ان نناهض الظلم والتحامل والكذب والقسوة . ولكن لا يكفي في ذلك ان نمضي في طريقنا يقبض هذا الخير الغامض منا على شفاهنا وحسب . فلا انسان يتحرك في اعماق نفوسنا يجب ان يدفع الى حركة ، متصلة بطريقة ما ، مهما تكن غير مباشرة ، لانشاء عالم اصلح من عالمنا هذا

واذا شاء أحد ان يحتفظ بإتزانه وصحة حكمه في ازمنة الكوارث فعليه ان يذكر ما في العالم من خير ، ذكره ما فيه من شر . والطريقة الوحيدة التي تهوّن علينا الشرور العظيمة وتعيننا على تحملها ، هي ان نجد العزاء في ذكر خير عظيم . واذا كان هناك طريق يخرج بنا من هذا القنوط المرخي سدوله فذلك هو طريق تذكر النعم الكثيرة لا نسيانها ، وتوسيع افق النظر لا تضييقه ، وإرهاف حسنا لادراك الخير بدلاً من الاقتصار على تبيّن الشر

ان البشر مزيج غريب من الالهي والشيطاني ، وهذا يجعل الخير والشر في الحياة لا مفرّ منهما . فالقنوط التام ليس اقرب الى التعقل من التفاؤل الاعمى . والحياة ليست حافلة بالالم والقسوة وحسب ، بل هي حافلة كذلك بالشعر والموسيقى والحب والتوق الذي يرتفع مجتحاً فوق الالم ، مبيناً عظمة مجد الانسان عند ما يكون الانسان أفضل ما يكون ، موحياً الينا بأن نتوخى ما هو نبيل في الحياة ، وأن ننصرف عن كل حقير خسيس . هناك الآيات السامية التي تجلو ما في الانسان العقلية — ما تعلمناه من أساليب الطبيعة وكشفناه من خفاياها ، وقدرتنا على التأمل في الكون الذي لا يحده زمن ، فتبدو دوامات الزمن الحاضر صغيرة يسيرة الشأن ، في سعة الكون العظيم . وهناك الشجاعة والصبر في أخلاق ملايين من الناس ، وآيات البطولة العالية في ما لا يحصى عدده من المنازل الحقيرة في طول الدنيا وعرضها . وهناك مجد وبطولة في خدمة الانسانية ، يتجليان في الأطباء والممرضات الذين يعرضون انفسهم للموت في الاوبئة الخامدة ، والعلماء الذين يغامرون بحياتهم في تجارب غرضها انقاذ الغير من الالم ، وفي فعال رجال المطافىء وفرق الانقاذ على السواحل ، وفي مواجهة الاستعمار العام في سبيل قضية يؤمن المرء بها . ان ألوان البسالة والبطولة لا تحصى !

في التاريخ فترات كثيرة غلب عليها الخير ، واخرى غلب عليها الشر . ولكن فترة واحدة منها لم تدم . ومن سوء حظنا أننا نعيش في فترة يغلب الشر عليها . ولكنها الى أمد وستنتهي . ولا ريب في أن أمدها يقصر بقدر ما يبذله كل فرد في سبيل الخير

فالرجل الذي يغريه القنوط أقول له : ذكّر نفسك بأنه كما تكون يكون عالمنا . وأن كلاً منا عليه قسط يوفيه لإنشاء هذا العالم . هذا التفكير يبقي مصباح الرجاء مضيئاً . وبالرجاء ، لا تنتفي آلام الحياة ، ولكنها تستهدف غرضاً جديراً بالبذل والتضحية في سبيله